

كتاب : الأمثال في القرآن الكريم
المؤلف : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية

الأمثال في القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير البرية محمد وآله وصحبه أجمعين قال شيخنا رحمه الله وقع في القرآن أمثال وان أمثال (١) القرآن لا يعقلها إلا العالمون وأما شبيهه (٢) شئ بشئ في حكمه وتقريب المعقول من الخسوس أو أحد الخسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر كقوله تعالى في حق المنافقين: (ومثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت وسلم ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم - إلى قوله - إن الله على كل شئ قدير) (٣) فضرب للمنافقين بحسب حالهم

مثلين مثلا ناريا (٤) ومثلا مائيا لما في الماء والنار (٥) من الإضاءة والإشراق والحياة فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزل من السماء متضمنا لحياة القلوب واستنارتها وهذا سماه روحا ونورا (٦) وجعل قابليه أحياء في النور ومن لم يرفع به رأسا أمواتا في الظلمات، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي أنهم بمنزلة من استوقد نارا لتضيئ له وينتفع بها وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام، فاستضاءوا به وانتفعوا به

- (١) شيخنا هو الامام ابن القيم وهذه العبارة من كلام أحد تلامذة ابن القيم [والمثل بالكسر والتحرك ومنه (مثل الجنة التي...)] انظر ترتيب القاموس المحيط ح ٤ / ٢٠٣ .
(٢) في م، ع (فأنا تشبيهه).
(٣) سورة البقرة: ١٧ - ٢٠ .
(٤) الزيادة من م، ع.
(٥) إشارة إلى الآية (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا...) الشورى ٥٢ / ٥٣ .
(٦) المراد بالروح القرآن والنور هو الوحي القرآني انظر الشورى: ٥٢ .

تشبيه الكفار بالمطر المصاحب للظلمة والرعد والبرق وآمنوا به وخالطوا المسلمين ولكن لما لم يكن لصحتهم (٧) مادة من قلوبهم من نور الإسلام طغى عنهم وذهب الله بنورهم. ولم يقل نارهم فإن النار فيها الإضاءة والإحراق فذهب الله بما فيها من الإضاءة وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وتركهم في ظلمات لا يبصرون فهذا حال من أبصر ثم عمي وعرف ثم أنكر ودخل في الإسلام ثم فارق قلبه لا يرجع إليه ولهذا قال (٨): (فهم لا يرجعون).
ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي فشبههم بأصحاب صيب وهو المطر الذي يصب أي ينزل من السماء (٩) فيه ظلمات ورعد وبرق فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر

القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيته وخطابه الذي يشبه الصواعق فحالم كحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فلضعفه وخوفه (١٠) جعل أصبعيه في أذنيه خشية من صاعقة تصيبه وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيرا من مخانيث تلاميذ الجهمية (١١) والمبتدعة إذا سمعوا شيئا من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم رأيتهم عنها معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، ويقولون مخنتهم: سدوا عنا هذا الباب، وقرأوا شيئا غير هذا وترى قلوبهم مولية وهم يمحون لثقل معرفة الرب سبحانه تعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم وكذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد وتليت عليهم نصوصه (١٢) المبطل

(٧) في ع (ولكن ستصحيحهم).

(٨) في ع (قال فيهم).

(٩) (أنا صبينا الماء صبا) انظر تفسير النسفي ١ / ٢٦، ومفردات الراغب ٢٢٨.

(١٠) الضمير يعود للمنافقين (وخوره) من ع.

(١١) وابن القيم كتابه القيم الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة وانظر مقالات الاسلاميين للاشعري... (١٢) من م (النصوص).

الماء الذي به الحياة لشركهم اشمأزت قلوبهم وثقل (١٣) عليهم لو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا وكذلك (١٤) نجد أعداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل ذلك عليهم جدا فأنكرته قلوبهم وهذا كله شبه ظاهر ومثل محقق من اخوانهم من المنافقين في

المثل الذي ضربه الله لهم بالماء فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم (١٥) فصل: وقد ذكر سبحانه المثليين المائي والناري في سورة الرعد ولكن في حق المؤمنين فقال تعالى: (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا راييا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زيد مثله كذلك يضرب الله... (١٦) شبه الوحي الذي أنزله حياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله حياة الأرض بالنبات وشبه القلوب بالأودية (١٧) فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها كما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتملت (١٨) غشاء وزيدا فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فتكرب (١٩) عنه بما شاربه وهي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها فإنه لا يجامعها ولا يساكنها وهكذا (يضرب الله الحق والباطل) ثم ذكر المثل

(١٣) من م (وثقلت).

(١٤) من م (ولذلك).

(١٥) يعنى بذلك الرافضة وهم غلاة الشيعة الذين يؤذون رسول الله بكراهية أصحابه وسبهم.

(١٦) الرعد: ١٧.

(١٧) الامثال في الكتاب والسنة: ١٩.

(١٨) من م (احتمل).

(١٩) من م (فيتكرر) وكربت الارض قلبهما للحدث مختار الصحاح ص ٥٦٦.

الناري فقال: (وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد

مثله) (٢٠) وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد (٢١) فخرج النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به فيرمى وي طرح ويذهب جفاء فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن وي طرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغناء والخبث ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يسقي (٢٢) منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره (٢٣) (ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلها والله الموفق).

فصل: ومنها قوله تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهم أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يفكرون) (٢٤) شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر فتروقه بزینتها وتعجبه (٢٥) فيميل إليها ويهوها اغتراراً منه بما حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة (٢٦) أخرج ما كان إليها وحيل بينه وبينها فشبها

(٢٠) الرعد: ١٧.

(٢١) تفسير النسفي ٢ / ٢٤٧، الطبري: ١٤ / ١٣٦.

(٢٢) من م، ع (يستقى).

(٢٣) انظر تفسير الطبري ١٤ / ١٣٤، النسفي ٢ / ٢٤٧ وابن كثير ٢ / ٥٠٨ انظر مختار الصحاح ص ٥٠٩.

(٢٤) يونس: ٢٤.

(٢٥) في ع (فيروقه تزينها ويعجبه).

(٢٦) إما بالموت وهذا ظاهر وإما بمرض ينزل بالمرء فلا يستفيد بها أو بآفة تجتاحها وتزيلها.

بالأرض الذي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر فيغتر به ويظن أنه قادر عليها مالك لها فيأتيها أمر الله فتندرك نباتها الآفة بغتة فتصبح كأن لم تكن قبل فيخيب ظنه وتصبح يداه صفراً منهما فهكذا (٢٧) حال الدنيا والواقع بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

فلما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال تعالى تعالى: (والله يدعوا إلى دار السلام) (٢٨)

فسمها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا فعم بالدعوة إليها وخص بالهداية من شاء فذلك عدله وهذا فضله (٢٩).

فصل: ومنها قوله تعالى: (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يسويان مثلاً أفلا تذكرون) (٣٠)

فإنه سبحانه وتعالى ذكر الكفار ووصفهم بأنهم ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ثم ذكر المؤمنين ووصفهم بالإيمان والعمل الصالح والإخبات إلى ربهم فوصفهم بعبودية الظاهر وبالباطن جعل أحد الفريقين كالأعمى والأصم من حيث كان قلبه أعمى عن رؤية الحق أصم عن سماعه فشبهت (٣١) بمن بصره أعمى عن رؤية أحق

الأشياء (٣٢) وسمعه أصم عن سماع الأصوات والفريق الآخر بصير القلب سميحه كبصير العين وسميع الأذن

فتضمنت الآية قياسين وتمثيلين للفريقين ثم نفى التسوية عن الفريقين بقوله (هل يسويان مثلاً) (٣٣) فصل: ومنها

قوله تعالى: (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت) (٣٤) فذكر سبحانه إهم ضعفاء وأن الذين

اتخذوهم أولياء

(٢٧) في م (فكذا).

(٢٨) يونس: ٢٥

(٢٩) معترك الاقران ١ / ٤٦٧ وابن كثير ٢ / ٤١٣، والنسفي ٢ / ١٥٩ والطبري ١١ / ١٠٢.

(٣٠) هود: ٢٤.

(٣١) في م (فشبهه).

(٣٢) في م، ع (رؤية الاشياء).

(٣٣) هود: ٢٤ انظر تفسير الطبري ١٢ / ٢٥ وغرائب القرآن ١١ / ١٧.

(٣٤) العنكبوت: ٤١.

أضعف منهم فهم في ضعفهم وما قصده من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا وهو أوهن البيوت وأضعفها (٣٥) وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا كما قال تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا. كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا) (٣٦)، وقال تعالى: (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون. لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) (٣٧) وقال بعد أن ذكر هلاك الأمم المشركين: (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيء)) (٣٨)، فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ويتكسر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده. فإن قيل فهم (٣٩) يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله: (لو كانوا يعلمون).

فالجواب أنه سبحانه لم ينف (٤٠) عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم بأن اتخذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخذهم الأولياء من دونه يفيلهم عزا وقوة فكان الأمر بخلاف ما ظنوا (٤١).

(٣٥) في ع (فاهم).

(٣٦) مريم: ٨١: ٨٢.

(٣٧) يس: ٧٤، ٧٥.

(٣٨) هود: ١٠١.

(٣٩) في ع (فاهم).

(٤٠) في الاصل (ينفى) والواجب حذفها.

(٤١) انظر الجمان ١٨٦ - الامثال ٢٧ - ٢٨ وتفسير ابن كثير ٣ / ٣١٤ والطبري ٢٠ / ١٥٢، ١٥٣.

فصل: ومنها قوله تعالى: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) (٤٢) ذكر سبحانه للكافرين مثلين مثلا بالسراب ومثلا بالظلمات المتراكمة وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان أحدهما من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق

تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء وأن عقائدهم (٤٣) وأعمالهم (٤٤) التي ترتبت عليها كانت كسراب يرى في عين (٤٥) الناظرين ماء ولا حقيقة له وهكذا الأعمال (٤٦) التي لغير الله عز وجل وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له (٤٧) وليست كذلك وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (٤٨))، وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض الخالية القفر من البناء والشجر

٥ (٤٢) النور: ٣٩ / ٤٠ .

(٤٣) يقصد الجهمية.

(٤٤) قوله (ترتبت عليها...) عليها الضمير يعود على أهل الجهل والبدع الذين يظنون أنهم على هدى ونور.

(٤٥) في م (كسراب بقيعة يرى في عين...).

(٤٦) الأعمال التي ليست مطابقة لأوامر الله ويحسبها فاعلها إنما نافعة كأعمال أهل البدع والأهواء فلجهلهم يظنون أنها نافعة وفي الحقيقة أنها لا خير فيها.

(٧) الزيادة من م.

(٤٨) الفرقان: ٢٤ .

والنبات (٤٩) والعالم فمحل السراب أرض قفر لا شيء (٥٠) بها والسراب لا حقيقة له وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى، وتأمل ما تحت قوله (يحسبه الظمآن ماء والظمآن) (٥١) الذي اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا بل خانته أحوج ما كان إليه فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسل (٥٢) عليهم الصلاة والسلام ولغير الله جعلت كالسراب فرفعت لهم أظماً ما كانوا إليها (٥٣) فلم يجدوا شيئا

ووجدوا الله سبحانه (٥٤) ثم فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم، وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري

(٥٥) رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث التجلي يوم القيامة (ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها

السراب فيقال لليهود وما كنتم تعبدون؟ فيقولون كنا نعبد عزيراً ابن الله فيقال: كنتم لم يكن الله صاحبه ولا ولد فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا فيقال اشربوا فيتساقطون في جهنم ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال: كذبتكم ما كان الله صاحبه ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: أن تسقينا فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون، وذكر الحديث (٥٦) وهذه حال كل صاحب باطل فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه فإن الباطل لا حقيقة له وهو كاسمه باطل فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلاً وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة (٥٧) كالعمل لغير الله عز وجل أو على غير أمره بطل

(٤٩) العالم في هذه الجملة زائدة والصواب (والنبات فمحل السراب أرض القفر).

(٥٠) في ع (فيها).

(٥١) التور: ٣٩.

(٥٢) في م (الرسل).

(٥٣) في م، ع (أظماً ما كانوا وأحوج ما كانوا إليها).

(٥٤) مقتبسة من قوله تعالى (ووجد الله عنده فوفاه حسابه) التور: ٣٩.

(٥٥) هو سعد بن مالك بن سنان الخدرى بايع تحت الشجرة.

وشهد ما بعد أحد انظر الاصابة لابن حجر ٣ / ٤١٤.

(٥٦) البخاري كتاب التوحيد ٤ / ٢٠١ ومسند أحمد ٣ / ١٦ / ١٧.

(٥٧) يعنى الاعمال.

العمل ببطان غايته وتضرر عامله ببطلانه وبحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه بل صار معذبا بفوات نفعه وبحصول ضد النفع فلماذا قال تعالى (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) (٥٨) فهذا مثل الضال الذي يحسب (٥٩) أنه على هدى.

فصل: النوع الثاني أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليه ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل حيث لم يعلموا بعلمهم فصاروا جاهلين وظلمة اتباع الغي والهوى فحالم كحال من كان في بحر لحي لا ساحل له وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج (٦٠) موج ومن فوقه سحب مظلم فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجها الله منها إلى نور الإيمان، وهذان المثالان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء والظلمات المضادة للنور نظير المثليين اللذين ضربهما للمنافقين والمؤمنين وهما المثل المائي والمثل الناري (٦١) وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة فكذلك الكفار في هذين المثليين حظهم من الماء السراب الذي يغرر الناظر فيه (٦٢) ولا حقيقة له وحظهم الظلمات المتراكمة وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي فيكون المثالان صفتين لموصوف واحد ويجوز أن يكون المراد به تنويع (٦٣) أحوال الكفار وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا

(٥٨) التور: ٣٩.

(٥٩) في ع (يحسب: يحسب عمله).

(٦٠) كررنا (موج) لم تكون في الاصل.

(٦١) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٦.

(٦٢) في م، ع (يغر الناظر).

(٦٣) في ع (متنوع).

على غير علم ولا بصيرة بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحووا الضلالة على الهدى وآثروا الباطل على الحق وعموا عنه بعد إذ أبصروه وجحدوه بعد أن عرفوه فهذا حال المغضوب عليهم والأول حال الضالين وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى: (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة إلى قوله (ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيلهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب (٦٤) فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم وهم أهل النور والضالين وهم أصحاب السراب والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة والله أعلم. فالمثل الأول من المثليين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، (٦٥) فأولئك أصحاب العمل الباطل وهؤلاء أصحاب العمل الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحب مظلم وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى والباطل فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين وليطابق بينهما وبين المثليين يعرف عظمة القرآن وجلاله وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك

أنه لم يجعل لهم نورا (٦٦) بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر (٦٧) رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم

(٦٤) النور: ٣٨.

انظر تفسير الكشاف ص ٦٧.

(٦٥) سقط من الطبع (والمثل الثاني لأصحاب العلوم والنظرو الابحاث الذي (التي) لا تنفع).

(٦٦) راجع تفسير الكشاف ٣ / ٦٧.

(٦٧) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي أبو عبد الرحمن راجع تجريد أسماء الصحابة للذهبي ج ١ / ٣٢٥.

قال: (إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل) (٦٨) فلذلك أقول جف القلم على علم الله فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يحيى به قلبه وروحه كما يحيى بدنه بالروح التي ينفخها فيه فهي (٦٩) حياتان حياة البدن بالروح وحياة الروح والقلب بالنور ولهذا سمي الله الوحي روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه كما قال تعالى: ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) (٧٠) وقال: (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده) (٧١) وقال: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا هادي به من نشاء من عبادنا) (٧٢) فجعل وحيه روحا ونورا فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ماله من نور) (٧٣) فصل: ومنها قوله تعالى: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (٧٤) فشبه أكثر الناس بالأنعام

والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام لأن البهيمة يهديها سائقها فتتهدي وتتبع الطريق (٧٥) فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا والأكثر من يدعوهم الرسل ويهدوهم

(٦٨) المسند ٢ / ١٧٦ وسنن الترمذي ٣٨ باب ١٨ ومستدرک الحاکم وضعفه السيوطي.

(٦٩) في م، ع (فهما).

(٧٠) النحل: ٢.

(٧١) غافر: ١٥.

(٧٢) الشورى: ٥٢.

(٧٣) انظر الامثال ٢٦: ٢٧، الجمال ١٧٧ - ١٨٠، تفسير الطبري ١٨ / ١٤٨ وابن كثير ٢ / ٢٩٦.

(٧٤) الفرقان: ٤٤.

(٧٥) راجع تفسير الكشاف ح ٣ / ٩٤.

يستحيون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها (٧٦) وأعطى ذلك هؤلاء ثم لم ينفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم فإن لا يهتدي إلى الرشده وإلى الطريق مع الدليل له (٧٧) أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه.

فصل: ومنها قوله تعالى: (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون) (٧٨) وهذا دليل قياسي احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها (٧٩) من نفوسهم ولا يحتاجون فيها إلى غيرهم ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندهم (٨٠) معلوم لها فقال (هل لكم من ما ملكت أيمانكم من) (٨١) عبيدكم وإيمانكم شركاء في المال والأهل أي هل يشاركم عبيدكم في أموالكم وأهلكم فأنتم وهم في ذلك سواء تخافون (٨٢) أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم كما يخاف الشريك شريكه وقال ابن عباس (٨٣): (تخافون أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضا) والمعنى هل

(٧٦) في ع (تكلم بها).

(٧٧) في ع، م (إليه).

(٧٨) الروم: ٢٨.

(٧٩) راجع الكشاف ٣ / ٢٢١.

(٨٠) في م (عندها).

(٨١) الروم: ٢٨ وفي الاصل وردت محرفة (من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء).

(٨٢) في م (تخافون) انظر الطبري ٢١ / ٣٩ والبغوي ٥ / ٢٠٧.

(٨٣) انظر الطبري ٢١ / ٣٩ والخازن والبغوي ٥ / ٢٠٧.

هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم (٨٤) وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وإنما هم إخوانكم

جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم عبادي (٨٥) (فكيف) (٨٦) تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخالقي فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول (٨٦).

فصل: ومنها قوله تعالى: (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون.

وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) (٨٨).

هذان مثالان متضمنان قياسين من قياس العكس وهو نفى الحكم لنفي علتة وموجبه، فإن القياس نوعان: قياس طرد يقتضي اثبات الحكم في الفرع لثبوت علة الأصل فيه وقياس عكس يقتضي نفي الحكم عن الفرع لنفي علة الحكم فيه فالمثل الأول ما ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان فالله سبحانه هو المالك لكل شئ ينفق كيف يشاء على عبده سرا وجهرا ليلا ونهارا يمينه مألأى لا تعضيها إلا نفقة سحاء الليل والنهار والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شئ فكيف تجعلونها شركاء لي وتعبدها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين هذا قول مجاهد وغيره (٨٩)، وقال ابن

(٨٤) خاطركم.

(٨٥) في م (عبيد لي).

(٨٦) زيادة من م.

(٨٧) انظر تفسير ابن كثير، ٢١ / ٣٨ والطبري ٣٨ والامثال: ٢٨.

(٨٨) النحل: ٧٥، ٧٦ انظر الزمخشري ٢ / ٤٢٠ - ٤٢١.

(٨٩) انظر تفسير الطبري ١٤ / ١٤٩ - ١٥٠ وابن كثير ٢ / ٥٧٨.

عباس (٩٠) وهو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقا حسنا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرا وجهرا والكفار بمنزلة عبد مملوك (عاجز) (٩١) لا يقدر على شئ لأنه لا خير عنده فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟، والقول الأول أشبه بالمراد فإنه أظهر في بطلان الشرك وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة وأقرب نسبا (٩٢) بقوله: (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون.

فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) (٩٣) ثم قال: (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر) ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقا حسنا والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شئ فهذا مما نبه عليه المثل وأرشد إليه فذكره ابن عباس منيها على إرادته لأن (٩٤) الآية اختصت به فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس (٩٥) وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك معنى الآية التي لا معنى لها غيره فيحكيه قوله (٩٦).

فصل: وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون (٩٧) من دونه أيضا، فالصنم الذي يعبدون من دونه (٩٨) بتزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي

(٩٠) انظر زاد المسير ٤ / ٤٧٤ وابن كثير ٢ / ٥٧٨ والطبري ١٤ / ١٤٩.

(٩١) مزيدة من م، ع.

(٩٢) من م (منها).

(٩٣) النحل: ٧٣، ٧٤.

(٩٤) في م، ع (لا أن الآية).

(٩٥) لقب بالخير والبحر ابن عم رسول الله ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ولقد كان ذلك.

(٩٦) الطبري ١٤ / ١٤٨ - ١٥١.

(٩٧) في م (يعبد).

(٩٨) في م (دون الله) وفي ع (من دون الله).

واللساني ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شئ البتة ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فإن أمره با لعدل وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له راض به أمر لعباده به محب لأهله لا يأمر بسواه بل ينزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل بل أمره وشرعه عدل كله وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه وهم الجاوروه (٩٩) فيه عن يمينه على منابر من نور وأمره بالعدل يتناول الأمر الشرعي الديني والأمر القدري الكوني وكلاهما عدل لا جور فيه بوجه ما كما في الحديث الصحيح: (اللهم اني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك) (١٠٠) فقضاؤه هو أمره الكوني فإنما أمره إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون فلا يأمر بحق وعدل (١٠١)، وقضاؤه وقدره القائم به حق وعدل وإن كان في المقضي المقدر ما هو جور وظلم فإن القضاء (١٠٢) غير المقضي والقدر غير المقدر ثم أخبر سبحانه (أنه على صراط مستقيم) وهذا نظير قول شعيب (١٠٣) عليه الصلاة والسلام (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) (١٠٤) فقله: (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) نظير قوله: (ناصيتي بيدك) وقوله: (إن ربي على صراط مستقيم) نظير قوله (عدل في قضاؤك) فالأول ملكه والثاني حمده وهو سبحانه له الملك وله الحمد وكونه سبحانه على صراط مستقيم يقتضي أنه لا يقول إلا الحق ولا يأمر إلا بالعدل ويفعل إلا ما هو مصلحة وحكمة وعدل

(٩٩) في ع (الجاورة له).

(١٠٠) مسند أحمد ١ / ٣٩١ / ٤٥٢ وانظر الكشاف ٢ / ٢٧٦، ٢٧٧.

(١٠١) في ع (بالحق والعدل).

(١٠٢) في م (فالقضاء).

(١٠٣) الصحيح إنه هود كما في م، ع وليس شعيباً.

(١٠٤) هود: ٥٦.

فهو على حق في أقواله وأفعاله فلا يقضي على العبد ما يكون ظالماً له به ولا يأخذه بغير ذنبه وينقصه من حسناته شيئاً ولا يحمل عليه من سيئات غير التي لم يعملها ولم يتسبب إليها (١٠٥) شيئاً ولا يؤخذ أحداً بذنب غيره ولا يفعل قط ما لا يحمد عليه ويثنى به عليه ويكون له فيه العواقب الحميدة والغايات المطلوبة فإن كونه على صراط مستقيم يأتي ذلك كله.

قال محمد بن جرير الطبري (١٠٦) وقوله: (إن ربي على صراط مستقيم) يقول إن ربي على طريق الحق يجازي الحسن من خلقه بإحسانه والمسئ بإساءته لا يظلم أحداً منهم شيئاً ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان (ثم حكى عن مجاهد (١٠٧) من طريق شبل عن ابن أبي نجيح عنه: (إن ربي على صراط مستقيم) قال: الحق وكذلك رواه ابن جريج عنه (١٠٨) وقالت فرقة: هي مثل قوله (إن ربك لبالمرصاد) (١٠٩) وهذا اختلاف عبارة فإن كونه بالمرصاد هو مجازة المحسن بإحسانه والمسئ بإساءته، وقالت فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن ربي يحتكم على صراط مستقيم ويحضكم عليه (١١٠)، وهؤلاء إن أرادوا أن هذا معنى الآية التي أريد بها فليس كما زعموا ولا دليل على هذا المقدر. وقد فرق سبحانه بين كونه آمراً بالعدل وبين كونه على صراط مستقيم وإن أرادوا أن حثه على الصراط المستقيم من جملة على صراط مستقيم فقد أصابوا، وقالت فرقة أخرى معنى كونه على صراط مستقيم أن مرد العباد والأمور كلها

(١٠٥) في ع (يتسبب بها).

(١٠٦) تفسير: ١٢ / ٦٠ وهو الامام الجليل صاحب التصانيف الكثيرة توفي سنة ٣١٠ هـ.

(١٠٧) من أبرز أئمة التابعين.

(١٠٨) هو الامام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الدوسي الاموي صاحب التصانيف توفي سنة ١٥٠ هـ انظر زاد المسير ٤ / ١١٨.

(١٠٩) هم الاشاعرة انظر غرائب القرآن ١٢ / ٣٩، زاد المسير ٤ / ٤٠١ والرازي ١٧ / ١٣.

(١١٠) الخازن والبغوي ٣ / ٢٣٨.

إلى الله لا يفوته شيء (١١١) منها، وهؤلاء أن أرادوا أن هذا معنى الآية فليس كذلك وإن أرادوا أن هذا من لوازم كونه على صراط مستقيم ومن مقتضاه وموجبه فهو حق، وقالت فرقة أخرى: معناه كل شيء تحت قدرته وقهره وفي ملكه وقبضته (١١٢) وهذا وإن كان حقاً فليس هو معنى الآية وقد فرق شعيب (١١٣) عليه الصلاة والسلام بين قوله: (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) وبين قوله: (إن ربي على صراط مستقيم) فهما معنيان مستقلان فالقول قول مجاهد (١١٤) وهو قول أئمة التفسير ولا تحتمل العربية غيره إلا على استكراه، قال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز: (١١٥)

أمير المؤمنين على صراط* إذا عوج الموارد مستقيم وقد قال تعالى: (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) (١١٦) وإذا كان الله تعالى هو الذي جعل رسله عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم على الصراط المستقيم

في أقوالهم وأفعالهم فهو سبحانه أحق أن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله وبالله التوفيق.

فصل: وفي الآية قول ثان مثل الآية الأولى سواء (١١٧) أنه مثل ضربه الله للمؤمن والكافر وقد تقدم ما في معنى (١١٨) هذا القول والله الموفق

(١١١) في الاصل (شينا).

(١١٢) ابن كثير ٢ / ٤٥٠.

(١١٣) هود وليس شعيبا كما في ع.

(١١٤) الطبري ١٢ / ٦١.

(١١٥) ديوان جرير ١ / ٢١٨ يمدح هشام بن عبد الملك.

(١١٦) الانعام: ٣٩.

(١١٧) في ع (سوى).

(١١٨) كلمة (معنى) ساقطة من م، ع.

فصل: ومنها قوله تعالى في تشبيه من أعرض عن كلامه وتدبره: (فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة.

فرت من قسورة) (١١٩) شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد والرماة ففرت منه، وهذا من بديع التمثيل (١٢٠) فإن القوم من جهلهم بما بعث الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم كاحمر فهي لا تعقل شيئا فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها. وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا وحضه على النفور فإن في الاستفعال (١٢١) من الطلب قدرا زائدا على الفعل المجرد فكأنها تواصلت بالنفور وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء (١٢٢) فالمعنى: أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته (١٢٣).

فصل: ومنها قوله تعالى: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) (١٢٤) ففاس سبحانه من حمله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب فقراه به (١٢٥) بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له (ولا) (١٢٦) تحكيم له وعمل بموجبه كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا فحظه

(١١٩) المدثر: ٤٩ - ٥١.

(١٢٠) في م (القياس والتمثيل).

(١٢١) ع (الاستغفار).

(١٢٢) انظر معاني القرآن ٣ / ٢٠٦ وإملاء مامن به الرحمن ٢ / ٢٧٣ والكافي ١٨٦.

(١٢٣) تفسير النسفي ٤ / ٣١٢.

(١٢٤) الجمعة: ٥.

(١٢٥) م، ع (فقراءته).

(١٢٦) مذيدة من م.

من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ولم يرعه حق رعايته (١٢٧).

فصل: ومنها قوله تعالى: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شننا لرفعناه بما ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يفكرون) (١٢٨) فشبّه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه ودينه على آخرته والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات وأوضعها قدرا وأخبثها (١٢٩) نفسا وهمته لا تعدى بطنه وأشدّها شرها وحرصا ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويتروح حرصا وشرها ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه وإذا رميت له بحجر رجع إليه ليعضه من فرط همته وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان وأرضها بالدنايا والجيف المروحة أحب إليه من اللحم الطري والقدرة أحب إليه من الحلوى وإذا ظفر بميعة تكفي مائة كلب لم يدع كلبا (١٣٠) يتناول معه منه شيء إلا هر عليه وقهره (١٣١) لحرصه وبخله وشره ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحة وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعتة في قوته وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورتاسة وضع له خطمه (١٣٢) بالأرض وخضع له ولم يرفع إليه رأسه وفي تشبيهه من أثر الدنيا وعاجلها على

(١٢٧) الجمال ٣١٢ / ٣١٣.

(١٢٨) الاعراف: ١٧٦.

(١٢٩) في م، ع (احسها).

(١٣٠) في م (كلبا واحدا).

(١٣١) في م (الا عن غلبة وقهر).

(١٣٢) خشمه.

الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهته (١٣٣) سر بديع وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة هفوه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها، وهفه نظير هف الكلب الدائم في حال ازعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى قال ابن جريج: (١٣٤) (الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فهو مثل الذي يترك الهدى لا فؤاد له إنما فؤاده ينقطع)، قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها فهذا يلهف على الدنيا من قلة صبره عليها وهذا يلهث من قلة صبره على الماء فالكلب من أقل الحيوانات صبورا عن الماء، وإذا عطش أكل

الشرى من العطش وإن كان صبر عن الجوع (١٣٥)، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لثنا يلهث قائما وقاعدا وماشيا وواقفا ذلك لشدة حرصه فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث فهكذا مشبهه شدة (١٣٦) حرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث (١٣٧) فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث قال مجاهد (١٣٨): وذلك مثال الذي أوتى الكتاب ولم يعمل به، وقال ابن عباس (١٣٩): إن تحمل عليه الكلمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى الخير

(١٣٣) في م (لهفه).

(١٣٤) في م (وإن كان فيه صبر على الجوع) سبق تعريفه انظر الطبري ٩ / ١٢٩.

(١٣٥) في م (وإن كان فيه على الجوع).

(١٣٦) في م (شدة الحرص وحرارة الشهوة).

(١٣٧) في م (اللهف).

(١٣٨) تفسير مجاهد ١ / ٢٥١، الطبري ٩ / البغوي ٢ / ٣١٥.

(١٣٩) الطبري ٩ / ١٢٩.

كالكلب إن كان رابضا لثت وإن طرد لثت، وقال الحسن: (١٤٠) (وهو المنافق لا يثبت على الحق دعي أو لم يدع وعظ أم لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك، وقال عطاء (١٤١): ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه، وقال محمد بن قتيبة (١٤٢): (كل شئ يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش ألا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال أو حال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش فضر به الله مثلا لمن كذب بآياته)، وقال ابن عطية (إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لثت وإن تركته على حاله لثت، ونظيره قوله تعالى: (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون) (٣١٤).

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى فمنها قوله: (وآتيناه آياتنا) فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بما عليه فأضافها إلى نفسه ثم قال: (فانسلخ منها) أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها وفارقها فراق الجلد ينسلخ عن اللحم، ولم يقل فسلخناه منها لأنه هو الذي تسبب إلى انسلخه منها باتباع هواه، ومنها قوله سبحانه: (فأتبعه الشيطان) أي لحقه وأدركه كما قال تعالى في قوم فرعون: (فأتبعوهم مشرقين) (١٤٤) فكان محفوظا محروسا بآيات الله محمي الجانب بما من الشيطان لا ينال منه شيئا إلا غرة وخطفة فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم الذين يعرفون الحق ويعملون

(١٤٠) الطبري ٩ / ١٢٩ وابن كثير ٢ / ٢٦٧.

(١٤١) الكشف والبيان: ١٣١.

(١٤٢) انظر تاريخ بغداد ح ٢ توفي سنة ٣٨٩ هـ انظر تأويل مشكل القرآن ٣٦٥ والقرطبي ٣٢٢، البغوي ٢ / ٣١٦.

(١٤٣) تفسير البغوي ٢ / ٣١٦.

(١٤٤) الشعراء: ٦٠.

بخلافه كعلماء السوء، ومنها أنه سبحانه قال: (ولو شئنا لرفعناه بها) (١٤٥) فأخبر سبحانه أن الرفع عند الله ليس بمجرد العلم (فإن هذا كان من العلماء) (١٤٦) وإنما هي بتابع الحق إثاره وقصد مرضاة الله تعالى فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به فتعود بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه الله من العلم وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأساً فإن الخافض الرفع الله سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى: ولو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناها، قال ابن عباس رضي الله عنهما (١٤٧): (ولو شئنا لرفعناه بعلمه بها) وقالت طائفة (١٤٨): الضمير في قوله (لرفعناه) عائد على الكفر، والمعنى، ولو شئنا لرفعناه عن الكفر بما معه من آياتنا، قال مجاهد وعطاء (١٤٩): (لرفعناه عنه الكفر بالإيمان وعصمناه) وهذا المعنى حق والأول مراد الآية، وهذا من لوازم المراد وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينيهون على لازم معنى الآية فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها، وقوله: (ولكنه أخلد إلى الأرض)، قال سعيد بن جبير (١٥٠): ركن إلى الأرض.

وقال مجاهد (١٥١): سكن، وقال مقاتل (١٥٢) رضي بالدنيا، وقال

(١٤٥) الاعراف: ١٧٦ وانظر الكشاف ٣ / ١١٥.

(١٤٦) زيادة في م، ع.

(١٤٧) انظر تفسير الطبري ٩ / ١٢٧ والبعوى ٢ / ٣١٥.

(١٣٨) انظر زاد المسير ٣ / ١٩٠ والفخر الرازي ١٥ / ٥٥ وروح المعاني ٣ / ١٦٣.

(١٤٩) مجاهد بن جبير المكي ٢١ - ١٠٣ هـ من أبرز التابعين قال عنه الامام الثوري (إذا جاءك التفسير من مجاهد فحسبك) انظر البغوي والخازن ٢ / ٣١٥ (قال مجاهد وعطاء).

(١٥٠) سعيد بن جبير بن هشام الاسدي الوالي توفي سنة ٩٥ هـ انظر القرطبي ٧ / ٣٢١ والطبري ٩ / ١٢٧.

(١٥١) القرطبي ٧ / ٣٢٢ والطبري ٩ / ١٢٧.

(١٥٢) هو ابن سليمان البلخي انظر البرهان للزركشي ٢ / ١٥٨ وغرائب القرآن ٩ / ٨٥.

أبو عبيدة (١٥٣): (لزمها وأبطأ والمخلد من الرجال هو الذي تبطن مشيته ومن الدواب الذي تبقى ثناياه إلى أن تخرج ربايعته) وقال الزجاج (١٥٤): خلد وأخلد (واحد) (١٥٥) وأصله من الخلود وهو الدوام والبقاء يقال: فلان أخلد ولاذ بالمكان إذا أقام به) قال مالك بن نويرة: بأبناء حي من قبائل مالك وعمرو بن يربوع أقاموا وأخلدوا.

قلت: ومنه قوله تعالى: (يطوف عليهم ولدان مخلدون) (١٥٦) أي قد خلقوا للبقاء لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون وهم على سن (١٥٧) واحد أبداً (١٥٨)، وقيل (١٥٩) المقروطون في آذانهم وللسورون في أيديهم (١٦٠) وأصحاب هذا القول فسروا اللفظ ببعض لوازمه وذلك إشارة (١٦١) إلى التخليد على ذلك السن فلا ينفى القولين (١٦٢).

وقوله: (واتبع هواه) قال الكلبي (١٦٣): (اتبع مسافل الأمور وترك معاليها) وقال أبو روق (١٦٤) (اختار الدنيا على الآخرة) وقال عطاء: (١٦٥)

(١٥٣) انظر الطبري ٩ / ١٢٨ ومجاز القرآن ٩ / ٨٥.

(١٥٤) النحوي وتفسيره معاني القرآن البغوي ٢ / ٣١٥ والرازي ١٥ / ٥٦ وزاد الميسر ٣ / ٢٩٠.

(١٥٥) الزيادة من البغوي.

(١٥٦) الواقعة: ١٧.

(١٥٧) في م (على ذلك).

(١٥٨) زاد المسير ٨ / ١٣٦.

(١٥٩) في م (هم المقرطون).

(١٦٠) غريب القرآن ١٥٣، وزاد المسير ٨ / ١٣٦.

(١٦١) في م، ع (إمارة التخليك).

(١٦٢) في م، ع (فلا تنافي بين القولين).

(١٦٣) الكلبي هو أبو النصر محمد بن السائب بن بشر الكلبي الكوفي انظر وميزان الاعتدال ٣ / ٦١.

والكشف والبيان ١٣١.

(١٦٤) الكشف والبيان ١٣١ وهو عطية بن الحارث الكوفي ذكره سعد في الطقة الخامسة من الكوفيين انظر

الطبقات ٦ / ٣٦٩.

(١٦٥) البغوي ٢ / ٣١٥.

أراد الدنيا وأطاع. شيطانه، وقال ابن زيد (١٦٦): (كان هواه مع القوم) يعني الذين حاربوا موسى عليه الصلاة والسلام وقومه وقال يمان: (اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعله (١٦٧)، فإن قيل الإستدراك ولكن يقتضي أن يثبت بعدها نفي (١٦٨) ما قبلها أو ينفي ما أثبت كما تقول: لو شئت لأعطيته لكنني لم أعطه ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته، فالاستدراك يقتضي (ولو شئت لرفعناه بها) ولكننا لم نشأ، أو فلم نرفع ولكنه أخلد (١٦٩) فكيف استدرك بقوله: (ولكنه أخلد إلى الأرض) بعد قوله: (ولو شئت لرفعناه (١٧٠) بها) قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه (١٧١) المعنى المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله: (ولو شئت لرفعناه بها) أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من ايتار الله ومرضاته على هواه ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه، وقال الزمخشري (١٧٢) (المعنى ولو لزم آياتنا لرفعناه بها فذكر المشيئة والمراد ما هي تابعة له ومسببة عنه قال: ألا ترى إلى قوله: (ولكنه أخلد) فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله فوجب أن تكون (ولو شئت) في معنى ما هو فعله ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال ولو شئت لرفعناه ولكننا لم نشأ: فهذا (١٧٣) منه شنشنة نعرفها من قدرني ناف للمشيئة العامة مبعده للنجعة في جعل كلام الله معتزليا

(١٦٦) انظر زاد المسير ٣ / ٢٩٠ والبغوي ٢ / ٣١٥ والقرطبي ٧ / ٣٢٢.

(١٦٧) الكشف والبيان ١٣١ وزاد المسير ٣ / ٢٩٠ وفتح القدير ٢ / ٢٦٥.

(١٦٨) في م، ع (يثبت بعدها مانقى قبلها).

(١٦٩) ليست في م.

(١٧٠) الاعراف: ١٧٦.

(١٧١) في م، ع (جانب المعنى).

(١٧٢) هو أبو القاسم جار الله محمد الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وكان عالما وإماما باللغة والنحو والتفسير انظر

تفسيره الكشاف ١ / ٥٨٧ ويفضل قراءة النسخة الخاصة بالكشاف المحققة لبيان ما فيها من الاعتزال والتعليق عليها.

(١٧٣) انظر الكشاف ٢ / ١٣١ بنفس النص.

قدر يا فآين قوله: (ولو شئنا) من قوله ولو لزمها ثم إذا كان اللزوم لها موقوفا على مشيئة الله. وهو الحق بطل أصله، وقوله: (إن مشيئة الله تابعة للزومه لآياته تابعة لمشيئة الله عز وجل فمشيئة الله سبحانه متبوعة لاتابعة وقال وسبب لا مسبب وموجب مقتضى لا مقتضى (١٧٤) فما شاء الله وجب وجوده وما لم يشأ امتنع وجوده.

فصل: ومنها قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم) (١٧٥)، وهذا من أحسن القياس التمثيلي فإنه شبه تمزيق عرض (الأخ بتمزيق لحمه ولما كان المغتاب يمزق عرض) أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت لما كان المغتاب عاجزا عن دفعه بنفسه بكونه غائبا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن كان ذلك نظير (١٧٦) تقطيعه لحم، أخيه والأخوة تقتضي حفظه وصيانتة والذب عنه، ولما كان المغتاب منفكها (١٧٧) بغيبته وذمه متحليا بذلك شبه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محبا لذلك معجبا به شبه بمن يجب أكل لحم أخيه ميتا ومحبه لذلك قدر زائد على مجرد أكله كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه، فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه للمحسوس وتأمل أخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا، ووصفهم بذلك في آخر الآية والإنكار عليهم في أولها أن يجب

(١٧٤) في ع (يقتضى لا يقتضى).

(١٧٥) الحجرات: ١٢ انظر الكشاف ٣ / ٥٦٧.

(١٧٦) في ع (بمنزلة).

(١٧٧) في م (متمتعا بعرض أخى منفكها) وفي ع (مستمتعا).

أحدهم ذلك فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يجون ما هو مثله ونظيره فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحياه وشبه لهم ما يحيونه بما هو أكره شئ إليهم وهم أشد شئ نفرة عنه فلماذا يوجب العقل والفترة والحكمة أن يكونوا أشد شئ نفرة عما هو نظيره ومشبهه (١٧٨) وبالله التوفيق فصل: ومنها قوله تعالى: (مثل الذين كفروا برهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد) (١٧٩) فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانفاج بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء المنثور لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شئ منه وقت شدة حاجته إليه فلذلك لا يقدرون مما كسبوا على شئ لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شئ فلا يرون لها (١٨٠) أثرا من ثواب ولا فائدة نافعة فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه موافقا لشرعه، والأعمال أربعة

فواحد مقبول وثلاثة مردودة، فالمقبول: الخالص الصواب، فالخالص أن يكون لله لا لغير، والصواب أن يكون مما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، والثلاثة مردودة: ما خالف ذلك. وفي تشبيهها بالرماد سر بديع وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهاهما لأصل هذا وهذا فكانت الأعمال التي لغير الله عز وجل وعلى غير مراده طعمة للنار وبها تسعر النار على أصحابها وينشئ الله لهم من أعمالهم الباطلة نارا وعذابا كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره (١٨١)

(١٧٨) في ع (شبيهه).

(١٧٩) إبراهيم: ١٨ الزمخشري ٢ / ٣٧٢.

(١٨٠) في م، ع (له).

(١٨١) في م (لأمره ونهيه).

التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيما وروحا فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا فهم وما يعبدون من دون الله وقود النار (١٨٢).

فصل: ومنها قوله تعالى: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) (١٨٣) فشبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: (الكلمة الطيبة هي شهادة أن لا إله إلا الله (١٨٤)) فإنما تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة فكل عمل صالح مرضي لله عز وجل ثمرة هذا الكلمة، وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال (١٨٥): أصلها ثابت قول (١٨٦) لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السماء يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء) وقال الربيع بن أنس (١٨٧): [كلمة طيبة هذا مثل الإيمان، والإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول الإخلاص فيه، وفرعه في السماء خشية الله، والتشبيه على هذا القول

أصح وأظهر وأحسن] فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل الباسقة القرع في السماء علوا التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل

(١٨٢) انظر الطبري ١٣ - ١٩٦ / ١٩٧ والدر المنثور ٤ / ٧٥ والبيهقي ٤ / ٣٧.

(١٨٣) إبراهيم: ٢٤ والكشاف ٢ / ٣٧٦.

(١٨٤) انظر الطبري ١٣ / ٢٠٣ وابن كثير ٢ / ٥٣٠ والدر المنثور ٤ / ٧٥ البيهقي.

(١٨٥) انظر ابن كثير ٢ / ٥٣٠ والطبري ١٣ / ٢٠٣.

(١٨٦) في الطبري وابن كثير (يقول).

(١٨٧) ابن جرير ١٣ / ٢٠٣، ١٠٤.

حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيت مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء ولا تزال هذه الشجرة تنمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب ومحبة القلب لها وإخلاصه فيها ومعرفته بحقيقتها وقيامه بحققها (١٨٨) ومراعاتها حق رعايتها فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها واتصف قلبه بها وانصغ بها بصيغة الله التي لا أحسن صيغة منها فيعرف حقيقة الهيئة (١٨٩) التي يشبهها قلبه لله ويشهد بها لسانه وتصديقها جوارحه ونفى تلك الحقيقة ولو ازمها عن كل ما سوى الله عز وجل وواطأ (١٩٠) قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طاعة سالكة سبل ربه ذللا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا كما لا ينبغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الرب تعالى وهذه الكلمة الطيبة تنمر كثيرا طيبا كلما يقارنه (١٩١) عمل صالح فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب كما قال تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) (١٩٢) فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب وأخبر أن الكلمة (١٩٣) الطيبة تنمر لقائلها كل وقت عملا صالحا كل وقت. والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد المؤمن بما عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا متصفا بموجها قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة (١٩٤) من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه وفروعها متصلة

(١٨٨) في م (بحقوقها).

(١٨٩) في م (الإلهية).

(١٩٠) في م ع (واقف).

(١٩١) في م، ع (تنمر كلما كثيرا طيبا).

(١٩٢) فاطر: ١٠.

(١٩٣) في الاصل الكلم الطيبة فأتينا التاء في آخرها انظر الكشاف ٢ / ٣٠٢.

(١٩٤) في م (فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد).

بالسما وهو مخرجة لثمرتها كل وقت، ومن السلف من قال [إن الشجرة الطيبة هي النخلة] (١٩٥) ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح (١٩٦)، ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه كما قال محمد بن سعد حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) يعني بالشجرة الطيبة المؤمن ويعني بالأصل الثابت في الأرض والفرع في السماء يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم فيبلغ قوله وعمله السماء وهو في الأرض (١٩٧)، وقال عطية العوفي في (ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) قال (١٩٨): ذلك مثل المؤمن لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله).

وقال الربيع بن أنس (١٩٩): (أصلها ثابت وفرعها في السماء) قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وحده وعبادته وحده لا شريك له (قال: أصلها ثابت) قال: أصل عمله ثابت في الأرض (وفرعها في السماء) قال: ذكره في السماء.

ولا اختلاف بين القولين، فالمقصود بالمثل المؤمن والنخلة مشبهة به وهو مشبه بما وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بما أولى أن يكون كذلك ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة (٢٠٠) فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

- (١٩٥) انظر الطبري ١٣ / ٢٠٤ وابن كثير ٢ / ٥٣٠ والبعث ٤ / ٤٠ وتفسير مجاهد ١ / ٣٣٧.
- (١٩٦) صحيح البخاري ١ / ١٣٠ ومسلم ٤ / ٢١٦٥ ونصه (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنما مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله.
- وقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول؟ فقال (هي النخلة).
- (١٩٧) ابن جرير ١٣ / ٢٠٤.
- (١٩٨) نفس المصدر السابق.
- (١٩٩) سبق تعريفه.
- (٢٠٠) انظر الحزن والبعث ٤ / ٤٠ وابن كثير ٢ / ٥٣٠ وزاد المسير ٤ / ٣٥٨.

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق (٢٠١) ويقتضيه علم الذي تكلم به سبحانه وحكمته، فمن ذلك أن الشجرة لا بد لها من عروق (وساق وفروع) (٢٠٢) وورق وثمر فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطلق المشبه المشبه به فعروقه العلم والمعرفة واليقين وساقها الإخلاص وفروعها الأعمال وثمرتها ما توجه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة والصفات الممدوحة والأخلاق الزكية والسمت الصالح والهدى والدل (٢٠٣) المرضي فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله كتابه به، والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه وأخبرت به عنه رسوله صلوات الله وسلامه عليهم والإخلاص قائم في القلب والأعمال موافقة للأمر والهدى والدل والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجثت من فوق الأرض مالها من قرار، ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميتها فإذا انقطع عنها السقي أو شك أن تيبس فهكذا شجرة الإسلام (٢٠٤) في القلب إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعمل النافع والعمل الصالح والعود بالتذكير على التفكير والتفكير على التذكير وإلا أو شك أن تيبس، وفي مسند الإمام أحمد (٢٠٥) من حديث أبي هريرة (٢٠٦) رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب

- (٢٠١) في م، ع (يليق به).
- (٢٠٢) زيادة ممن م، ع.
- (٢٠٣) زيادة من م، ع.
- (٢٠٤) في ع (شجرة الإيمان).
- (٢٠٥) وهو الامام المحدث الفقيه.
- (٢٠٦) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي وكان من أكثر الصحابة حفظا للحديث ورواية له توفي سنة ٩٥ هـ.

فجددوا إيمانكم) (٢٠٧).

وبالجمل فالغرس إن لم يتعاهده صاحبها أو شك أن يهلك، ومن هنا يعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات وعظيم رحمته وتعامه وإحسانه إلى عباده بأن وضعها عليهم وجعلها مادة لسقي

غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: إن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة (أنه) (٢٠٨) لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب ليس من جنسه فإن تعاهده ربه وقناه وقلمه كمل الغرس والزرع واستوى وتم نباته وكان أوفر لثمرته وأطيب وأزكى وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع ويكون الحكم له أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته ومن لم يكن له فقه يقيس (٢٠٩) في هذا ومعرفته به فإنه يفوته ربح (٢١٠) كثير وهو لا يشعر فالمؤمن دائم سعيه في شيئين (٢١١): سقى هذه الشجرة وتنقية ما حولها فبسقيها (٢١٢) تبقى وتدوم وتنقية ما حولها تكمل وتتم والله المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر بحسب أذهاننا الواقعة وقلوبنا المخبطة (٢١٣) وعلو منا القاصرة وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار وإلا فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان وزكت النفوس وخلصت الأعمال وتجردت المهمم للتنقي عن الله تعالى

(٢٠٧) أيضا في معجم الطبراني والمستدرک والمخلص ١ / ٤ عن عبد الله بن عمرو وهو حديث حسن.

(٢٠٨) زيادة في م.

(٢٠٩) في م (فقه نفيس) وفي ع (فقه في نفس هذه).

(٢١٠) زيادة في م وفي ع (فاته ربح كثير).

(٢١١) في ع (شأن سقى).

(٢١٢) الفاء زائدة لم تكن في الاصل.

(٢١٣) في م (المخطنة) وهي الاصح.

ورسوله صلى الله عليه وسلم لشاهدنا من معاني كلام الله عز وجل وأسراره وحكمه ما تضمنه علمه عنده العلوم وتلاشى عنده معارف الحق وبهذا يعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم رضي الله عنهم وإن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته فصل: ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة فشبها بالشجرة الخبيثة التي اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢١٤) فلا عرق ثابت ولا فرع عال ولا ثمرة زاكية ولا ظل ولا جنى ولا ساق قائم ولا عرق في الأرض ثابت معدق ولا أعلاها مونتق ولا جنى لها ولا تعلقو بلى تعلق.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكتبتهم (٢١٥) وجدده كذلك فالخسران كل الخسران (٢١٦) الوقوف معه والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه، قال الضحاك: (٢١٧) (ضرب الله مثلا للكافر بشجرة اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار) يقول: ليس لها أصل ولا فرع وليس لها ثمرة ولا فيها منفعة كذلك الكافر ليس يعمل خيرا ولا يقول ولا يجعل الله فيه بركة ولا منفعة وقال ابن عباس (٢١٨).

(ومثل كلمة خبيثة وهي الشرك كشجرة خبيثة يعني الكافر اجثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر ولا برهان ولا يقبل الله عمل المشرك ولا يصعد إلى الله فليس له أصل ثابت في الأرض ولا فرع في السماء يقول ليس له عمل صالح في السماء ولا في الآخرة، وقال الربيع بن أنس (٢١٩).

(مثل الشجرة الخبيثة مثل

(٢١٤) زيادة في م.

(١١٥) في م (وكسبهم).

(٢١٦) (الخرسان) الثانية ساقطة من م.

(٢١٧) هو ابن مزاحم الهلالي مولا هم الخرساني روى عن بعض الصحابة وأخذ عنهم العلم توفي سنة ١٠٥ هـ انظر الطبري ١٣ / ٢١٣.

(٢١٩) تفسير الطبري ١٣ / ٢١٣.

الكافر ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض ولا يصعد إلى السماء) وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية (إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال لا أعلم لها في الأرض مستقرا ولا في السماء مصعدا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافي بها يوم القيامة) (٢٢٠) وقوله اجثت أي استؤصلت من فوق الأرض، ثم أخبر سبحانه عن فصله وعدله في الفريقين أصحاب الكلم الطيب والكلم الخبيث فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت فأصل هؤلاء بعدله لظلمهم وثبت المؤمنين بفضلهم لإيمانهم. وتحت قوله: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) كنز عظيم من وقف عليه لظنته (٢٢١) وهو وأحسن استخراجيه واقتناءه (٢٢٢) وأنفق منه فقد غنم ومن حرمه فقد حرم وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله طرفه عين فإن لم يثبتته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه، عبده

ورسوله صلى الله عليه وسلم: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) (٢٢٣)، وقال تعالى: (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) (٢٢٤) وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: (وهو يسألهم ويشيتهم) (٢٢٥)، وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) (٢٢٦).

(٢٢٠) الطبري ١٣ / ٢١٢.

(٢٢١) في ع، م من وفق لظنته.

(٢٢٢) في ع (واقنته).

(٢٢٣) الإسراء: ٧٤.

(٢٢٤) الأنفال: ١٢ انظر الكشاف ٢ / ٤٦٠.

(٢٢٥) رواه الترمذي ٤ / ٦٨٩ - ٦٩٠ ومسند أحمد ٢، ٣٦٨ / ٣٦٩ (وهو يأمرهم ويشيتهم) (٢٢٦) هود: ١٢٠.

فخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت ومخلول بترك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومنشأه من القول الثابت وفعل ما أمر به العبد فيهما يثبت الله عبده فكل ما كان أثبت قولاً وأحسن فعلاً كان أعظم تثبتاً، قال تعالى: (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبتاً) (٢٢٧) فأثبت الناس قلباً أثبتهم قولاً والقول الثابت هو القول

الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابت له حقيقة وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عباده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا والكاذب من أمهن الناس وأحببهم وأكثرهم تلويها وأقلهم ثباتا (٢٢٨)، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابته ويعرفون (٢٢٩) كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة، وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم به فقال: والله ما فهمت منه شيئا إلا أني سمعت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت) ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم كما في صحيح مسلم (٢٣٠) من حديث البراء (٢٣١) بن عازب عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر (٢٣٢)، وقد جاء (هذا) (٢٣٣) مبينا في أحاديث صحاح فمنها ما في المسند من حديث داود بن أبي هند عن أبي نصر عن أبي سعيد قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال: (يا أيها الناس إن هذه الأمة تبلى في قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه

(٢٢٧) النساء: ٦٦ انظر تفسير الكشاف ١ / ٥٣٩.

(٢٢٨) في ع (وأجبنهم تلوما) وفي م (أجبنهم وأكثرهم تلونا).

(٢٢٩) زيادة في م، ع (٢٣٠) هو الحافظ الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ولد سنة ٣٠٤ هـ.

(٢٣١) البراء بن عازم بن الحارث بن عدى الانصاري انظر تجريد الاسماء الذهبي ١ / ٤٦.

(٢٣٢) مسلم ٤ / ٢٢٠١، ٢٢٠٢ صحيح البخاري ٣، ١٠٤ / ١٠٥ والنسائي ٤ / ٨٤.

(٢٣٣) زيادة من م، ع.

أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعه فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فيقول له صدقت فيفتح له باب إلى النار فيقال له: هذا منزلك لو كفرت بربك فأما إذ آمنت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى الجنة فيريد أن ينهض له: اسكن ثم يفسح له في قبره، وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى النار ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين (٢٣٤) قال بعض أصحابه: يا رسول الله: ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويصل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) (٢٣٥).

وفي المسند (٢٣٦) من حديث البراء بن عازب وروى المنهال عن عمرو وعن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قبض روح المؤمن فقال يأتيه آت - يعني في قبره - فيقول: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبي محمد صلى الله عليه وسلم قال: فيقول له: ما ربك وما دينك وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فذلك حين يقول الله: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم فيقال له: صدقت) (٢٣٧) وهذا حديث صحيح.

(٢٣٤) مسلم جنة ٦٧ ومسند أحمد ٣ / ٤٢٣ الطبري ١٣ / ٢١٤.

(٢٣٥) ابراهيم: ٢٧ وانظر تفسير الكشاف ٢ / ٣٧٧.

(٢٣٦) مسند أحمد ٤ / ٢٧٤.

(٢٣٧) سنن أبي داود والمسند ٢ / ٢٩٦.

ونحن بصدد طبع كتاب (سكرات الموت) وفقنا الله لاتماته.

وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمر وعن أبي سلمة عن أبي هريرة (٢٣٨) قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال: إذا قيل له في القبر: من ربك وما دينك فيقول: ربي الله وديني الاسلام ونبي محمد جاء بالبينات من عند الله فأمنت وصدقت فيقال له: صدقت، على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث) (٢٣٩) وقال الأعمش (٢٤٠) عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر قبض روح المؤمن قال: فترجع روحه في جسده ويبعث إليه ملكان شديدان فيجلسانه وينهرانه ويقولان من ربك؟ فيقول: الله وما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله.

قال: فيقولان له: وما يدريك؟ قال: يقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، وذلك قول الله تبارك وتعالى: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) رواه ابن حبان (٢٤١) في صحيحه وأحمد (٢٤٢)، وفي صحيحه أيضا من حديث أبي هريرة يرفعه قال: (إن الميت ليسمع خفق نعالهم يولون عنه مدبرين، فإذا كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه وكان الصيام عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله فيؤتى من عند رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل فيؤتى من عند

(٢٣٨) ادظر الاصابة لابن حجر ٤ / ٢٠٢ - ٢١٢.

(٢٣٩) سنن النسائي - كتاب الجنائز ١١٤، مسند أحمد ٣ / ٤ والطبري ١٣ / ٢١٥.

(٢٤٠) هو سليمان بن ممران الاسدي بالولاء أبو محمد الملقب بالاعمش التابعي انظر وفيات الاعيان ١ / ٢١٣.

(٢٤١) هو ابن حاتم محمد بن حبان البستي الموفى سنة ٣٥٤ هـ انظر كشف الظنون لحاجي

خليفة ٢ / ١٠٧٥.

(٢٤٢) الطبري ١٣ / ٢١٥ ترجمة أحمد انظر كشف الظنون ٢ / ١٦٨٠ هـ.

رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد قدمت للغروب فيقال له: أخبرنا عما نسألك عنه فيقول: وعم تسألوني؟ فيقول: دعوني حتى أصلي فيقال: إنك ستفعل.

فأخبرنا عما نسألك فيقول: وعم تسألون؟ فيقال له: رأيت هذا الرجل الذي بعث فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم، فيقولون: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له: على ذلك حبيت وعلى ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال: انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يجعل نسمة في النسمة الطيبة وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة فيعاد الجسد إلى ما بدا منه من التراب وذلك قول

الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) (٢٤٣) ولا تستطل هذا الفصل المعترض
فالمفتي والشاهد والحاكم بل وكل مسلم أشد ضرورة إليه من الطعام والشراب والنفس، وبالله التوفيق.
فصل: ومنها قوله تعالى: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور.
حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق)
(٢٤٤) فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره ويجوز لك في هذا التشبيه أمران: أحدهما أن
تجعلها تشبيها مركبا ويكون قد شبه من أشرك بالله وعبد معه غيره

(٢٤٣) مسلم جنة ٧١، البخاري جنائز ٦٧ وسنن أبي داود ومسند أحمد ٣ / ٢٣٣ .
، ٣٤٧، ٤٤٥، ٤ / ٢٩٦ والترغيب والترهيب ٤، ١٢٥ / ١٢٦ والطبري ١٣ / ٢١٥ / ٢١٦ .
(٢٤٤) الحج: ٣٠، ٣١ انظر تفسير الكشاف ٣ / ١٢ .

برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكاً لا يرجى معه نجاة فصور حاله بصورة من خر من السماء فاخطفه الطير في
الهوى فتمزق مزعا (٢٤٥) في حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت في بعض المطارح البعيدة وعلى هذا لا
ينظر إلى كل فرد من أفراد الشبه ومقابلته من المشبه به.
والثاني أن يكون من التشبيه المفرق فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به وعلى هذا فيكون قد شبه الإيمان
(٢٤٦) والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطة، فمنها يهبط إلى الأرض وإليها يصعد
منها وشبه تارك الإيمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين من حيث التصييق الشديد والآلام المتراكمة
والطير الذي يخطف (٢٤٧) أعضائه ويمزقه فقال كل ممزق بالشياطين التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عليه توزة أي
أزا وترعجه وتقلقه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان له مزعة من دينه وقلبه كما أن لكل طير مزعة من لحمه
وأعضائه، والريح التي تهوى به في مكان سحيق (٢٤٨) هو هواه الذي يحمله القاء نفسه في أسفل مكان وأبعده من
السماء.

فصل: ومنها قوله تعالى: (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو
اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب.
وما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) (٢٤٩) حقيق كل عبد أن يستمع (٢٥٠) لهذا

(٢٤٥) في ع (فقدمزقا) في م (فتمزق مزقا).
(٢٤٦) انظر معارج القبول للشيخ الحكيم والعقيدة الطحاوية للامام الطحاوي ودعوة التوحيد والادوار التي بها
د.
خليل هراس طبعنا.

(٢٤٧) في ع (والطير التي تتخطف).
(٢٤٨) سحيق (بعيد الاغوار) ترتيب قاموس الخيط ٢ / ٥٣٠ .
(٢٤٩) الحج، ٧٣: ٧٤ انظر تفسير الزمخشري ٢ / ٥٣٠ .
(٢٥٠) في م، ع (يستمع قلبه).

المثل ويتدبره حتى تدبره فإنه يقطع موارد (٢٥١) الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عباده وإعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن (٢٥٢) تقدر على خلق ذباب (٢٥٣) ولو اجتمعوا كلهم خلقه فكيف ما هو أكبر منه ولا يقدر على الانتصار من الذباب إذا سلبهم شيئاً مما عليهم من طيب ونحوه فيستقدونه منه فلا هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من أضعف الحيوان ولا على الانتصار منه واسترجاع ما سلبهم إياه فلا أعجز من هذه الآلهة ولا أضعف منها فكيف يستحسن عاقل عبادتها من دون الله تعالى، وهذا المثل من أبلغ ما أنزل الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقييح عقولهم والشهادة على أن الشياطين قد تتلاعب (٢٥٤) بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات وأن يعتمد (٢٥٥) إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات فأعطوها صوراً وتمثيل تمنع عليها القدرة على مخلوقات الآلهة (٢٥٦) الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء آفتهم أن هذا الخلق الأقل الأذل العاجز الضعيف لو اختطف منهم شيئاً واستلبه فاجتمعوا على أن يستقدوه منه لعجزوا عن ذلك ولم يقدرُوا عليه ثم سوى بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله: (ضعف الطالب

(٢٥١) في م، ع (مواد) والشرك الضلال والغنى والتمادى به ترتيب القاموس المحيط ٢ / ٧٠٤.

(٢٥٢) في ع (لا تقدر).

(٢٥٣) في ع (الذباب).

(٢٥٤) في ع، م (أن الشيطان قد تتلاعب بهم) والشيطان كل عات متمرّد من أنس وجن أو دابه ٢ / ٣٠٤ تريب القاموس المحيط.

(٢٥٥) في م، ع (وأن يصمد).

(٢٥٦) في ع (يمتدع عليها القدرة على أقل مخلوقات الاله الحق) وفي م (أقل مخلوقات الاله).

والمطلوب) قيل: الطالب العابد والمطلوب المعبود (٢٥٧) فهو عاجز متعلق بعاجز، وقيل: هو تسوية بين السالب والمسلوب وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز وعلى هذا (٢٥٨) فالطالب الإله الباطل والمطلوب الذباب يطلب منه ما استنقذه (٢٥٩) منه، وقيل الطالب الذباب والمطلوب الآلهة (٢٦٠) فالذباب يطلب منه ما يأخذه مما عليه، والصحيح أن اللفظ يتناول الجميع فضعف العابد والمعبود والمستلب والمستلب (٢٦١) فمن جعل هذا الآلهة مع القوي العزيز، فما قدره حق قدره ولا عرفه حق معرفته ولا عظمه حق عظمته (٢٦٢) فصل: ومنها قوله تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما

لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون) (٢٦٣).

فتضمن هذا المثل ناعقاً أي مصوتاً بالغمم وغيرها ومنعوقاً ثنا به (٢٦٤) وهو الدواب فقيل: الناعق العابد وهو الداعي للصنم والصنم هو المنعوق به المدعو وإن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه هذا قول طائفة منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره (٢٦٥) واستشكل صاحب الكشاف (٢٦٦) وجماعة معه هذا القول وقالوا: (قوله إلا دعاء ونداء) لا يساعد عليه لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء (٢٦٧)، وقد أجيب عن هذا الاشكال

(٢٦٨) بثلاثة

(٢٥٧) زاد المسير ٥ / ٤٥٢ والبغوى والحازن ٥ / ٣٨.

(٢٥٨) في م، ع (ف قيل الطالب).

(٢٥٩) في م (ما استلبه منه).

(٢٦٠) تفسير الطبري ١٧ / ٢٠٣.

(٢٦١) مذيروه في م، ع.

(٢٦٢) في ع، م (تعظيمه).

(٢٦٣) سورة البقرة: ١٧١ انظر الزمخشري ٣ / ٣٢٨.

(٢٦٤) في ع (ومنعوقا).

(٢٦٥) هو عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العلوى القرشى انظر تهذيب التهذيب ٦ / ١٧٩.

(٢٦٦) راجع كشف الظنون ٢ / ١٤٧٥.

(٢٦٧) تفسير الكشاف ١ / ٢٥٠.

(٢٦٨) في ع (الاستشكال).

أجوبة: أحدها أن زائدة، والمعنى بما لا يسمع دعاء ونداء قالوا وقد ذكر الأصمعي في قول الشاعر: (٢٦٩)

(جراجيج به لا تنفعل إلا مناخه).

أي متنفك مناخه، وهذا جواب فاسد فإن (إلا) لا تزداد في الكلام.

الجواب الثاني: أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصات المدعو الجواب الثالث: أن المعنى أن مثل هؤلاء في

دعائهم آهتهم التي لا تفقه دعائهم هذا كمثل الناقع بغنمه فلا ينفع بنعقته (٢٧٠) ثم شيئاً غير أنه في (٢٧١)

دعاء ونداء وكذا (٢٧٢) المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء، وقيل: المعنى ومثل الذين كفروا كالبهائم

التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت، فالراعي هو داعي الكفار والكفار هم البهائم المنعوق بها (٢٧٣)

قال سيويه (٢٧٤): المعنى.

ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به) وعلى قوله فيكون المعنى ومثل الذين كفروا وداعيتهم

(٢٧٥) كمثل الغنم والناقع بما ذلك أن تجعل هذا من التشبيه المركب وأن تجعله من التشبيه المفرق، فإن جعلته من

المركب كان تشبيهاً للكفار في عدم فقههم (٢٧٦) وانتفاعهم بالغنم التي ينعم بها الراعي فلا تفقه من قوله شيئاً

غير الصوت الخرد الذي هو الدعاء والنداء وإن جعلته من التشبيه المفرق فالذين

(٢٦٩) ديوان ذى الرمة ٣ / ١٤١٩ وانظر الموشح: ١٨٢ وتام البيت (على الخسف أو نرمى بها بلداً قفرا).

(٢٧٠) في م (من نعيقه بشئ) وفي ع (من نعقه بغنمه).

(٢٧١) في م (انه هو في).

(٢٧٢) في م (وكذلك).

(٢٧٣) انظر امالي المرتضى: ١ / ٢١٥ - ٢١٨.

(٢٧٤) صاحب كتاب اللغة المشهور ١ / ١٠٨، ١٠٩ (والنص إنما المعنى مثلكم).

(٢٧٥) في ع (ودعائهم).

(٢٧٦) في ع (تفقههم).

كفروا بمنزلة البهائم ودعأؤهم إلى الطريق (٢٧٧) والهدى بمنزلة النعيق وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم مجرد صوت الناعق والله أعلم.

فصل: ومنها قوله تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (٢٧٨) شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرا فأنبتت كل حبة سبع سنابل اشتملت كل سنبله على مائة حبة والله يضاعف (٢٧٩) بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه واحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها فان ثواب الانفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الايمان والاخلاص (والثبث) (٢٨٠) عند النفقة وهو اخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره باخراجه وسمحت به نفسه وخرج من قلبه قبل خروجه من يده فهو ثابت القلب عند اخراجه غير جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفة بمواقفه وبحسب طيب المنفق وذكائه (٢٨١) وتحت هذا المثل من الفقه: أنه سبحانه شبه الانفاق بالبذر فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره باذر ماله في أرض زكية فمغلة بحسب بذرة وطيب أرضه وتعاهد البذر بالسقي ونفي الدغل (٢٨٢) والنبات الغريب عنه فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة (٢٨٣) جاء أمثال الجبال وكان مثله كمثل حبة بر بوة وهي المكان فيه نصب (٢٨٤)

(٢٧٧) كلمة (الطريق) غير موجودة في م.

(٢٧٨) سورة البقرة: ٢٦١ وانظر تفسير الكشاف ١ / ٣٩٣.

(٢٧٩) في م (يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب) وفي ع (لمن يشاء بحسب).

(٢٨٠) زيادة من م، ع.

(٢٨١) في م (زكاته) وفي ع (وزكائه).

(٢٨٢) الدغل: محرقة: دخل في الامر مفسد والشجر الكثير الملتف البيت وكثرته ٢ / ١٩٠ من ترتيب القاموس الخيط.

(٢٨٣) منه الجائحة للشده الحاجة للحال ترتيب القاموس ١ / ٥٥٢.

(٢٨٤) (يكون في نصب الشمس) وفي م (تكون الجنة نصب).

الشمس والرياح فتربي (٢٨٥) الأشجار هناك أتم تربية فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع فرواها ونماها فآتت أكلها ضعفي ما توتيه غيرها بسبب ذلك الوابل وإن لم يصيبها وابل (٢٨٦) فطل مطر صغير القطر (٢٨٧) يكفيها لكرم منبتها تزكو على الطل وتنمي عليه مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا ومنهم من يكون إنفاقه طلاً والله لا يضع مثقال ذرة فإن عرض لهذا (٢٨٨) العامل ما يفرق أعماله ويطل (٢٨٩) بما حسناته كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار وله فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت فإذا كان يوم استيفاء الأعمال وإحراز الأجور وجد (٢٩٠) العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة

قسوته عن الإيمان والإخلاص (والإحسان) (٢٩٨) بمنزلة الحجر، والعمل الذي (٢٩٩) لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر فقوة ما تحته وصلابته تمنعه من الثبات والنبات (٣٠٠) عند نزول الوابل فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلاً وكذلك قلب المرآتي ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهي والقضاء والقدر فإذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه فبرز ما تحته حجراً صلداً لا نبات فيه، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرآتي ونفقتة لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه وبالله التوفيق (٣٠١).

فصل: ومنها قوله تعالى: (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته. وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون (٣٠٢) هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته فشبّه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في الكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر لا يبتغون (٣٠٣) به وجه الله وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله عليهم الصلاة والسلام بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره فأصابته ريح شديدة البرد جدا يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار فأهلك ذلك الزرع وأبيسته

(٢٩٨) زيادة في م، ع.

(٢٩٩) في م، ع (الذي عمله لغير الله).

(٣٠٠) في م، ع (من النبات والثبات).

(٣٠١) يلاحظ ان الآية التالية إذا أضيفت الى الشرح السابق تتم المعنى والمراد.

(٣٠٢) سورة آل عمران: ١١٦، ١١٧.

(٣٠٣) في م، ع (يبتغون).

واختلف في الصر فقيل: البرد الشديد (٣٠٤) وقيل: النار (٣٠٥) قاله ابن عباس، وقال الأنباري (٣٠٦): وإنما وصفت النار أنها صر لتصريتها عند الالتهاب، وقيل: الصر (٣٠٧) الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها (٣٠٨)، والأقوال الثلاثة متلازمة فهو برد شديد محرق يبسه للحرث كما تحرق النار وفيه صوت شديد وفي قوله: (أصاب حرث قوم ظلموا)

أنفسهم) تنبيه على أن سبب إصابتها لحرثهم هو ظلمهم فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة حتى أهلكت زرعهم وأبيسته، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها.

فصل: ومنها قوله تعالى: (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يسويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) (٣٠٩) هذا مثل ضربه الله سبحانه للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد تملكه جماعة (٣١٠) مشتركين في خلمته لا يمكنه رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثلاً عبد رجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده (وعرف الطريق) (٣١١) إلى رضاه فهو في راحة من تشاحن الخلقاء فيه بل هو سالم لما لكه من غير منازع فيه مع رافة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتوليته بمصالحه (٣١٢) فهل يستوي هذان العبدان، وهذا

- (٣٠٤) مجاز القرآن ١٠٢ والطبري ٤ / ٥٩ والبغوى ١ / ٤٠٨ .
- (٣٠٥) انظر لسان العرب مادة (صر) وابن كثير ١ / ٣٩٧ .
- (٣٠٦) هو القاسم بن محمد بن بشار الانباري أبو محمد له اهتمام بالادب والاحبار راجع مفتاح السعادة ١ / ١٤٦ وزاد المسير ١ / ٤٤٥ .
- (٣٠٧) انظر تفسير الكشاف ١ / ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
- (٣٠٨) انظر تفسير القرطبي ٣٤ / ١٧٨ وفتح القدير ١ / ٣٧٤ .
- (٣٠٩) سورة الزمر: ٢٩ انظر ابن كثير ٢ / ١٥٨ والكشاف ٣ / ٣٩٧ .
- (٣١٠) في م (جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون والرجال المتشاكس: الصنيق الخلق).
- (٣١١) زيادة من م، ع.
- (٣١٢) في ع، م (توليد مصالحة).

منه أبلغ الأمثال فإن الخالص لمالك واحد مستحق (٣١٣) من معونته وإحسانه والنفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين، (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون).

فصل: ومنها قوله تعالى: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين.

وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين.

ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين (٣١٤) فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكافر (٣١٥) ومثلين للمؤمنين: فتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاتب على كفره وعداوته لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأوليائه ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من حمة نسب أو وصلة صهر أو سبب من سبب الاتصال (٣١٦)، فإن الأسباب (كلها) (٣١٧) تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلا بالله وحده على أيدي (٣١٨) رسله عليهم الصلاة والسلام فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة والنكاح مع عدم الايمان لنفعت الصلة (٣١٩) التي كانت بين نوح ولوط (٣٢٠) عليهما الصلاة والسلام وامراتيهما فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئا

- (٣١٣) في ع، م (تستحق).
- (٣١٤) سورة التحريم: ١٠، ١١، ١٢ انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٥٢٥ والكشاف ٤ / ١٣٠، ١٣١ وكتاب في القرآن لمنير القاضي ص ٢٧ .
- (٣١٥) في م (الكفار) وفي ع (للكافرين).
- (٣١٦) في م، ع (أسباب).
- (٣١٧) زيادة من م، ع.
- (٣١٨) في ع (على يد رسول).
- (٣١٩) الوصلة والصلة القرابة والتشابه ترتيب القاموس ٢ / ٢١٠ .
- (٣٢٠) في م (لوط ونوح) والكمال في التاريخ ١ / ٧ .

وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين فقطعت الآية حينئذ طمع من ارتكب معصية الله تعالى وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال: فلا اتصال فوق اتصال النبوة والأبوة والزوجية ولم يعن نوح عليه الصلاة والسلام عن ابنه ولا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن أبيه ولا نوح و لوط عليهما الصلاة والسلام عن امرأتهما من الله شيئا، قال الله تعالى: (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم) (٣٢١) وقال تعالى: (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله) (٣٢٢)، وقال تعالى: (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا) (٣٢٣) وقال تعالى: (واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) (٣٢٤) وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن من تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة تنفعهم يوم القيامة أو تجبرهم ولا من عذاب الله تعالى أو تشفع لهم عند الله تعالى وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله تعالى جميع رسله عليهم الصلاة والسلام وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعادتهم.

فصل: وأما المثان اللذان للمؤمنين فأحدهما امرأة فرعون (٣٢٥)، ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا إذا فارقه في كفره وعمله

فمعصية العاصي لا تضر المطيع شيئا في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضعوا أمر الله عز وجل فتأتي عامة فلم يضر

(٣٢١) سورة الممتحنة: ٣.

(٣٢٢) سورة الانفطار: ١٩.

(٣٢٣) سورة البقرة: ١٢٣.

(٣٢٤) سورة لقمان: ٣٣.

(٣٢٥) انظر تفسير ابن كثير ٣ / ١٢٤ والكشاف ٤ / ١٣١ والأمثال لمبير ص ٢٧.

امرأة فرعون اتصاها به وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح و لوط اتصاها بهما وهما رسولا رب العالمين. المثل الثاني للمؤمنين: مريم التي لا زوج لها، لا مؤمن ولا كافر فذكر ثلاثة أصناف النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر والمرأة العزبة التي لا وصلة بينها وبين أحد، فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الصلة شيئا (٣٢٦) ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة فإنها سيقَّت في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم والتحذير من تظاهرن عليه وأمن إن لم يطعن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصاها برسول الله صلى الله عليه وسلم كما لم ينفع امرأة نوح و لوط اتصاها بهما، ولهذا (٣٢٧) ضرب لهما في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة، قال يحيى بن سلام (٣٢٨): (ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة (٣٢٩) وحفصة (٣٣٠) ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة وفي ضرب المثل للمؤمنين (مريم) (٣٣١) أيضا اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيئا قذف أعداء الله تعالى اليهود (لها) (٣٣٢)

ونسبتهم إياها وابنها إلى

ما برأهما الله عنه مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين فلا يضر

(٣٢٦) الخازن ٧ / ١٢٣.

(٣٢٧) في م، ع (ولهذا إنما ضرب في هذه الصورة).

(٣٢٨) يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التميمي مفير فقيه عالم بالحديث واللغة - له التفسير ومصنفات أخرى توفي سنة ٢٠٠ هـ وانظر زاد المسير ٨ / ٣١٥.

(٣٢٩) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٤ / ٤٥٩.

(٣٣٠) انظر الإصابة في تمييز الصحابة ٣٧٣ / ٣٧٤.

(٣٣١) زائدة من أعلام الموقعين، ع.

(٣٣٢) زيادة من م، ع.

الرجل الصالح قذف (٣٣٣) الفجار والفساق فيه وفي هذا تسلية لعائشة (٣٣٤) أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها كما في التمثيل (٣٣٥) بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدها في حق النبي صلى الله عليه وسلم فتضمنت هذه الأمثال التحذير لمن والتخويف والتحريض لمن على الطاعة والتوحيد والتسلية وتوطين النفس لمن أؤذي منهن وكذب عليه، وأسرار التزييل فوق هذا وأجل منه ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون.